مكان (إن ذاك النجاح) (بكرا فالنجاح في التبكير) كان أحسن . فقال بشار: إنما قلتها – يعني قصيدته – أعرابية وحشية ، فقلت (إن ذاك النجاح في التبكير) كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : (بكرا فالنجاح في التبكير) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة التي قلتها ، فقام خلف وقبَّل بين عيني بشار[١] .

ومن الحق أن مثالية الدلالة ومطابقتها للواقع الذي تم التواضع عليه ، قد أصابها – أيضًا – بعض الاهتزاز نتيجة لحركة الفتح العربي ، واتصال لغة العرب بغيرها من اللغات ، وقد أتاح ذلك بعض التطور الدلالي ، وأصبح الالتزام بالنمط البدوي نوعًا من الجمود ، وإن ظلت المطالبة به لها سيطرتُها على عقول كثير من النقاد ، كأبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وابن الأعرابي . وقد أدى ذلك إلى رفض كثير من أشعار جرير ، والفرزدق ، وإسحاق الموصلي ، والكُمَيْت ، والطِّرمّاح ، وغيرهم .

وقد علل ابن جني لذلك بما أصاب لغة الحضَر وأهل المدَر من الاختلال والفساد والخَطَل ، فإذا ثبت وجود أهل مدينة على فصاحتهم ، وسلامة لغتهم ، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخَذ عن أهل الوبر . وبالمثل أيضًا لو أصاب لغة أهل الوَبَر ما أصاب أهل الحضر من اضطراب الألسنة وانتقاض عادة الفصاحة لوجب رفض لغتهم[٢] .

والقضية بعد ذلك تئول إلى طبيعة الصراع بين النظر الجامد للغة ، والنظر المتطوِّر لها ، فالأول يتمسك ببتقاليد ومفاهيم أساسها روح المحافَظَة ، والآخر يحاول الإفادة من القديم ، مع تقبُّل الجديد .

(١) السكاكي : مفتاح العلوم ، ص ٧٥ . (٢) ابن جني : الخصائص ، ج ٢ ، ص ٥ .